عادل عزت

ظِلال المَرْسَم

شِعر

الأيادي

ظـلام المَـرْسَـم

عادل عزت

الأيادي

الكتاب : ظلام المرسم

المؤلف : عادل عزت

الناشر : الأيادي للنشر والتوزيع - تليفون : 012 476 24 39

الطبعة الثانية : القاهرة 2009

رقم الإيداع بدار الكتب : 2009 / 3550

التــوءمـــان " افتتاحية "

جَعَلَتْني بَعْضُ أحلامي خَفِيًّا فَتَقَمَّصْتُ غيومَ البحرِ ، وانْسَبْتُ بعيدًا عن حياتي ... كُلَّما أوغَلْتُ في البُعْدِ تَلَفَّتُّ فَما عُدْتُ أَراني .

قُلْتُ لن أُخْفِي – إذا ما جاءني ليلٌ – قناديلي ... رَذَاذُ الموجِ من حولي فراشاتٌ ، وكانَ الزهوُ ممزوجًا بروحِ البحرِ والأشباحُ تمضي بي ... ولن أُخْفِي قناديلي إذا ما جاءني ليلٌ وحيدٌ فَرَّ من تلكَ الليالي .

هل أنا اثْنانِ : خَفِيٌّ راحلٌ يبحثُ في الغيبِ عن الثاني أم الثاني هو الباحثُ ... إنْ لاحَ الْتَقَتْ بعضُ الثواني بالثواني؟

عَلَّهُ يمضي خلال الليلِ لا يَرْنُو لشيءٍ ، وأنا أمضي فَتِيًّا قَبْلَهُ أَجْمَعُ آلافَ الحكاياتِ بلَيْلي ونهاري .

كيف لا أشكو وموجُ البحرِ مَفْتونٌ
بتضليلي؟ هل اعْتَدْتُ عَلَى أحوالِهِ ،
وانْسَقْتُ في أهوائِهِ أَمْ هي روحُ
البحرِ أنْسَتْني البراري؟

هل أنا اثْنانِ : خَفِيٌّ لا يُرَى إنْ مَرَّ
في نورِ المرايا ، وشَقِيٌّ تَبْحَثُ
الأنغامُ والأشواقُ عَنِّي كُلَّما زادَ
ارْتِحالي؟

أتُراني حين ألقاهُ أَرَىٰ نَفْسي : مساحاتي،
وأسراري ، وخوفي ، وظلالي؟

أَئِذَا لاقَيْتُهُ صار اكْتِمالي؟!

عندما حاولتُ أن أدركَهُ راحَ بعيدًا
يَخْتَفي في أربعينِ العُمْرِ فانْسَبْتُ
إليهِ صار في الخمسينَ ... آهٍ ... مِثْلَهُ
صرتُ! أَلَسْنا واحدًا ؟! صَبًّا جَفُولاً
راحلاً نحو الذي في القبرِ يحيا
في انْتِظاري ؟!

2006

البدايـــات

رأيتُ السماءَ قدِ انْشَغَلَتْ بالمَجَرّاتِ ...
لا شيءَ حُرٌّ بتلك المسافاتِ ... لا شيءَ
حتىٰ النجومْ .

أكان الزمانُ – قديمًا – حرائقَ راحلةً ،
وابْتِهاجًا رهيبًا يدمِّرُ ما حولَهُ ،
والأمومةُ كامنةً لا تموتُ بذاك
الجحيمْ ؟!

إلىٰ أن تـزاوج نـورُ الحيـاةِ ببعـضِ
زهـورٍ تمـوتُ وتحـيا بعـيدًا عـن
النهرِ ، والليلُ في الصحَراءِ مُقِيمْ .

وبعـد ألـوفِ الدهـورِ تـراءَتْ ظلالُ
معـانٍ ... كـواكبُ تَـسْعَىٰ ، وجِـنٌّ
يسـافـرُ عَبْرَ الفضـاءاتِ ، والخـوفُ
مُنْتَشِرٌ في السَّديمْ .

وما كلُّ تلك العَلاقاتِ بين النفوسِ
وبين الظلامْ ؟!

تساءلتُ يا أيها الغيبُ أين البداياتُ؟
فانْكَشَفَ السرُّ عن ألفِ مَمْلَكَةٍ
تتصارعُ ، والناسُ تَسْعَى إلى الماءِ
من ظَمَأٍ ، والحياةُ قوافلُ مَنْسِيّةٌ ،
وأنا تائهٌ في الحضاراتِ أَدْخُلُها ثم
أحيا بها ، وأنامْ .

حرائقُ نَفْسي ربيعٌ من الشِّعرِ ... مَنْ
سوف يَسْمَعُني في الزِّحامْ ؟!

1998

المتصوفون الشعراء بعد مرورهم بمتاهات التجارة، وأبواب الأشرار

ها نحنُ نرجِعُ مَرَّةً أخرىٰ كأنا قد خَرَجْنا من تهاويلِ الغيومْ .

شِبْنا جميعًا. إننا نمضي إلىٰ أرضٍ تؤدي نحو أرضٍ ثم تَحْوينا القبورْ .

إنَّ التصوفَ عندنا ليس النُّكُوصَ عن الحياةِ ، وليس خَوضًا في ابْتِهالاتِ القدامَىٰ . إنّهُ الذوبانُ في الإنسانِ في أحلامِهِ وعذابِهِ ، وهْوَ انْتِشاءٌ بالحضاراتِ التي جاءت وظلَّتْ في الضميرْ .

لا شيءَ غيرُ مباهجِ الأشعارِ نتركُهُ
فهل تَأْسَى عَلَى أيامِنا ناسٌ إذا
مِتْنا ، ولم نتركْ سوى بعضِ
السطورْ؟

كنا خلال شبابِنا نَمْضِي ملائكةً
تحبُّ النارَ، أنهارًا تَضِلُّ هناك في
الغاباتِ ، أطيافًا تُبَدِّدُها الرياحُ ،
وفي نهاياتِ الليالي نحنُ أشواقٌ
تَمُرُّ ولا تَدُومْ .

لم نستطعْ تدوينَ سِحْرٍ قد أتانا من مُلامَسَةِ النساءِ ، وما اسْتَطَعْنا أن نَعِيْ أسرارَهُنَّ وهُنَّ عند الخَوْضِ في روحِ الظلامِ بدايةُ الرؤيا ، ومَرْفَأُ شوقِنا ، وهروبُنا من سَطْوةِ الزمن العصيبْ .

كيف افْتَرَقْنا منذ أعوامٍ وكيف الآنَ عُدْنا ؟ قد أَضَعْنا ألفَ عامٍ في متاهاتِ التجارةِ ، والتجارةُ مُلْتَقى الأغرابِ ... عِشنا في وضوحٍ زائفٍ ، والشِّعرُ في أعماقِنا لَيْلٌ تناسَيْناهُ حينًا بعد حينْ .

كتدافعِ الثيرانِ أطماعُ النفوسِ فَمَا ابْتَعَدْنا ، واقْتَرَبْنا من غبارٍ هائلٍ . لمَّا عَبَرْناهُ رأينا الحاكمَ الأبديَّ ، والوزراءَ منساقينَ من نَهَمٍ إلى نَهَمٍ . دماءُ الناسِ تَقْطُرُ من مُحَيَّاهُمْ وهُمْ لا يَشْعرونْ .

بل يَشْعرونْ .

لقد احْتَمَوا بكنوزِهم ، والناسُ تَذْوِي في مساكنَ من ظلامٍ . إنها الدنيا تسافرُ في الجنونْ .

حِنْثُ اليمينِ ، ولَـذَّةُ التعذيبِ ، والبخـلُ المخيفُ ، وهَمٌّ مَنْ يَـمْضِـي إلىٰ حَلَكِ البغايا... رغبةُ الحكامِ في طولِ البقاءِ، وسَحْقِ من نَزَلوا إلىٰ الأدنىٰ ... رأينا كلَّ هذا ما تَـلَـوَّثْـنـا . تبددتِ الخبائثُ في اللهيبْ .

قُـلْـنـا لـعلَّ الشِّـعْـرَ أبـعـدَنـا قـلـيـلاً أو كثيراً عن مصـائرِنا ... مـصـائرِ من أضاعـوا عُـمْـرَهَـم بَـحْـثًـا عـن الـلَّـذَّاتِ ، والأوهـامِ والجَبَروتْ .

هانحن نرجِعُ مرةً أخرَىٰ . تقابَلْنا كأنا ما افْتَرَقْنا فالمسافاتُ القديمةُ قد تَرَاءَتْ ، والأناشيدُ التي خَفَتَتْ تنادَتْ. إننا نمضي علىٰ مَهْلٍ ، ونَنْظُرُ للمدَىٰ . نَحْنُ القلوبْ .

لا فَرْقَ بين النورِ إذ يأتي من النيرانِ أو يَنْسَلُّ في الأشعارِ أو يَسْري مع الخَفَقَاتِ في شمسٍ تغيبْ .

مِسْكٌ عتيقٌ وافْتِتانٌ بالشَّذَىٰ يا أيها المَعْنَىٰ المُراوغُ يا غروبْ .

مـازالَ بـعـضُ الـعـشـقِ يَـسْـرِي فـي مُـحَـيَّـانا ، وفـي أجسـامِـنـا . لـكـأنـنـا عُـدْنـا إلىٰ أيـامـنـا الأولَـىٰ نُـصَـدِّقُ مـا تـقـدِّمُـهُ الليالي من وعودْ .

ونُصَدِّقُ الأحلامَ إذ باحتْ ولم تَـكْـشِـفْ لنا أسرارَها . هل تَـخْـتَـفـي في الليلِ أم رَحَلتْ إلىٰ الملكوتْ؟

هـا نـحـن نـرجـع مـرةً أخـرىٰ . لـيـالـيـنـا أُضِـيْـئَـتْ بالنجومِ وبالمَـشِـيبْ .

اللوحـات

المسافاتُ قد رَحَلتْ أم خُطايَ التي رَحَلَتْ ؟!

أم دَخلْتُ إلىٰ لَوْحَةٍ أتمشَّىٰ بها ، وأَرَىٰ في الظلالِ نفوساً قدِ اكْتَمَلَتْ ؟

آهِ كيف دخلْتُ إليها ؟ إلىٰ لَوْحَةٍ في الجدارِ مُثَبَّتَةً ، وتلكَّأتُ فيها إلىٰ أن عَبَرْتُ خلالَ الشجيراتِ . أَذْبُلُ إنْ ذَبُلَتْ .

ثم منها نُزِعتُ إلى لَوْحَةٍ بالظلامِ
قد اتَّحَدَتْ .

لكأن الليالي بها قد أَتَتْ من
ليالي الزمانِ القديمِ ، وعَبْرَ المَدَى
انْحَدَرتْ .

النجومُ هناكَ نِقَاطٌ من الدمعِ ،
و الكونُ أَقْرَبُ من وردةٍ بَعُدَتْ .

لستُ أتركُ هذا الشذَىٰ غير أني جُذِبْتُ بعيداً . دخلتُ نهاراً به قد شَمَمْتُ الظِّباءَ التي تَشْرَبُ الماءَ في وَجَلٍ ، و عيونُ التماسيحِ تَسْبَحُ في السطحِ ، و الموتُ ليس رحيمًا بَمْن غَفَلَتْ .

الظلالُ قد ارْتَحَلَتْ ؟ أم تقَرَّبَ ليلٌ من الشمسِ . شَجَّعَهُ أنها غَرَبَتْ ؟

هـا أنـا أتـأسَّى بِـهِ وبـهـا فـأرانـي
مئاتِ الحكايـاتِ . إنَّ المصـائرَ في
داخـلي انْـبَعَثَتْ .

غيـر أني تنـاسَـيْتُـهُـمْ ، وتَـخَـفَّيْتُ في
أزرقِ الليـلِ حـتّى وصـلتُ إلى لـوحةٍ
ليـس فيـهـا سـوى امْـرَأةٍ . زُرْتُـهـا ثـم
عانَـقْـتُـهـا ، وهْـيَ داخـلَ جسـمـي قـدِ
اخْـتَـبَـأَتْ .

و بـهـذا تـلاشـيـتُ في اللـونِ بـعـضَ
الجزيئات ، وانْتَشَرَ اللونُ نارًا بجسمي .
أموتُ إذا انْـطَـفَـأَتْ .

2003

حُلـم

ها أنا أَدْخُلُ في نومٍ فنادتْني كهوفٌ فَتَشَجَّعْتُ بأقداري ، وأسرارِ حياتي .

كلُّ كهفٍ كائناتٌ لا تخافُ العَيْشَ في الليلِ ، ولا تَخْشَىٰ قُدُومَ الغُرباءِ .

كلُّ كهفٍ يَتَمادَىٰ نحو كهفٍ ... لَمْ أكُنْ أخْشَىٰ مسافاتٍ من الأصواتِ في ذاك الظلامِ .

بَـغْتَـةً أحْـسَـسْـتُها تَـلْـمَـسُني حتى تمادينا وصرنا واحداً . هذا لقـاءٌ حافـلٌ بالنارِ . لا .. لن يَنْتهي . أين أنا ؟! ها شاطئُ البَحْرِ نجومٌ وظلالٌ وهْيَ حُلْمٌ مُسْتَمِرٌّ في دَمِـي . أيـن أنـا ؟! هـا أولُ الآفـاقِ مسـكونٌ بأشباحي وأشعاري ومازلنا كِيـانًا واحـداً . هـذا لِقاءٌ قد أحاطَـتْـهُ الشجـيـراتُ ولا .. لن يَـنْـتَـهي. قد صِـرْتُ أَسْتَجْدي مُحَيّاها بقلبٍ خائفٍ : لا تَذْهَبي لكنهـا انْـسَـلَّتْ من النـارِ إلى رَمْضـاءَ راحت تَـنْطَفي . قد هاجَرَتْ مِنِّي ، وغابَتْ في الليالي .

ها أنا وَحْدِي أعاني من شَذَاها عَبْرَ جِسْمِي وخيالي .

عَلَّها راحَتْ لبَيْتي . عَلَّني إنْ عُدْتُ ألقاها ببابي .

عندما حاولتُ أن أبحثَ عنها أَبْعَدَتْني خُطْوَتي عنها إلىٰ أنْ أَخْرَجَتْني من حِمَىٰ حُلْمي فَما عُدْتُ سوىٰ نَفْسي ، وأصواتِ لُهاثي .

ها أنا أَخْرُجُ من نومي فأبدو جَسَدًا يملكُ أشعارًا ، وبعضًا من رمادٍ ، وفتاةً تَرَكَتْني ثمَّ لَمْ تَأْسَ لحالي .

2006

الكوابيس

- 1 -

وجوهُ صَهاينةٍ ، وجراثيمُ تَكْبُرُ شيئًا فشيئًا ، وها قد تراءَوْا جميعًا عناصرَ ضاحكةً في الخرابْ .

فلم أتحمَّلْ فأسْرَعْتُ لِلَّيْلِ . إنَّ الليالي هروبْ .

تجاهَلْتُ أن امْرَأَ القَيْسِ مات شريدًا ومنهزِمًا ، وتجاهَلْتُ أن حياتي غروبْ .

وثَمَّــةَ بوابةٌ فُتِحَتْ فتراءتْ نجــومٌ تضيءُ الشجيراتِ والملكوتْ .

وجوهُ صَهاينةٍ تَتَخَفَّى هنا وهنالكَ أم أنني خائفٌ من ظلامٍ يعيشُ به العنكبوتْ ؟!

فلم أتحمَّلْ فعدتُ أخبِّئُ نَفْسي لَدَى القدماءْ .

كتـــابُ «الأغـانـي» مـكـانٌ بـه قـد رأيـتُ شعـوبًا تسافـر نحـو المعـاني، وكِـدْتُ أشـمُّ الإبـــاءَ الـذي قـــد يـجـــيءُ مـن الصحَراءْ.

فلمَّا صَحَـوْتُ تـراءى أمامي الخليـفةُ يجلسُ مُـتَّـكِـئًا والعبـيدُ تُـظَـلِّـلُـهُ، والـمـرايـا مـبـاهـجُ زائـفـةٌ. هـي أُبَّـهَـةٌ حَوْلَها يَـتَـخَـفَّى العذابْ.

- 2 -

تَخَلَّصْتُ من جَسَدي فتصاعَدْتُ
نحو سحائبَ فِضِّيَّةٍ حَمَلَتْني .
شعرتُ خلال الفضاءِ بأني أهيمُ
بقاعِ البحارْ .

تَمَنَّيْتُ أنثَى تؤانِسُني وأنا هائمُ
في المَدارْ .

فَلَمّا نَـزَلْنا معًا كانت الشمسُ أَخْـيِـلَةً ، والمدينـةُ خاليـةً ، والمسافاتُ ذاهبـةً نحو أرضِ الهجيرْ .

تسـاءلْـتُ أين أنـا ، فـأجابَـتْ ألسـتَ تُحِـسُّ وجودَ اليهودِ ؟ فقلتُ لها إنني لا أراهُـمْ . فـقـالت لقـد ذهبـوا يَـقْـتُـلُـونَ هنـالكَ جيرانَهم ، ويعودونَ بعد ذَهـاب النهارْ .

- 3 -

عيونٌ قد الْتَمَعَتْ في ظلالِ النباتاتِ ،
والصمتُ مُتَّصِلٌ بالنحيبْ .

فلمَّا اقْتَرَبْتُ رأيتُ ذئاباً
تحاصِرُني وتُزَمْجِرُ ، والنارُ أحملُها
شُعْلَةً . إنْ هيَ انْطَفَأَتْ هاجَمَتْني
الذئابْ .

تجاهَلْتُ عَضَّةَ ذئبٍ فقالت ليَ
النَّسَماتُ لسوف تُداويكَ روحُ الأسَىٰ
فاسْتَعَنْتُ ببعضِ الشَّذَىٰ ، وأزحْتُ
الضبابْ .

دليلي خلال الطريقِ يُحَدِّثُني عن ضياعِ الأحبةِ من أهلِهِ ، ويحاولُ أن يَهْتَدي بالسحابْ .

ونَحْنُ نسيرُ معًا كنتُ أخبرُهُ عن مصيري وعن وَلَعي بالغناءِ. أليس الغناءُ ندًى في القلوبْ ؟

وقلتُ له : سأموتُ وأرجِعُ للأرضِ يومًا . إذا ما سُئلتُ سأختارُ أَنْ أتحوَّلَ في لحظاتٍ إلى عندليبْ .

فأخبرني أننا سوف ننجو لأنَّ اليهودَ سيقتتلونَ بوقتٍ قريبْ .

فما عُدْتُ أنظرُ للأرضِ وهْيَ دماءٌ ، وما عدتُ أشعرُ أن هناكَ بقايا جماجمَ عَبْرَ الترابْ .

وقلتُ سأصحو من النومِ قبل وصولِ الذئابْ .

- 4 -

جَبُنْتُ فلم أستطِعْ قَتْلَهُ وهْو يمكُثُ بين الرِّعاعِ من الوزراءْ .

على شاطئ البحرِ كانوا جُلوسًا .
بطونٌ قدِ انْتَفَخَتْ ، وأراضٍ قد اخْتَبَأَتْ ، والنُّفاياتُ تذهبُ للفقراءْ .

لقد كنتُ أقدرُ ـ في الحُلمِ ـ أن أتخلصَ مِنه . بذاءاتُهُ حشراتٌ ، وما حوله من نفاقٍ لُعابُ الكلابْ .

وألفاظُهُ تستطيعُ مطاردةَ المُبْدِعينَ جميعًا . أكان معي خِنْجَرٌ ويَدِي خَذَلَتْني ؟ أم القلبُ كان كئيبًا فأنْهَيْتُ نومِي ، وقُمْتُ أُحَدِّقُ في نَمْنَماتِ المساءْ ؟

- 5 -

تَسَلَّلْتُ في رَهْبَةٍ ، وجلستُ بآخر صَفٍّ ، وقلبيَ ينتظرُ العازفينْ .

مع النغَماتِ سأعرفُ أسرارَ نَفْسي .
هي النَّغَماتُ سبيلي ، وبابُ نجاتي ،
وتَوْقِي إلى العارفينْ .

رأيتُ خلال ضميري مباهجَ شمسِ الغروبِ ، رأيتُ حدائقَ سِرْتُ بها في «فيينا» ، وشوقَ التماثيلِ أن تتباعدَ عن لحَظاتِ السكونْ .

ومِنْ نَظَراتِ المَسيحِ تَذَكَّرْتُ مَجْدَ الحُسَيْنِ فصالَحْتُ بين السنين وبين السنينْ .

وقال جليسيَ إنَّ الحضورَ أماميَ من علماءِ اليهودِ وإنَّ الكثيرَ من العازفينَ يهودْ .

وكان بَشُوشًا فقلتُ له إنَّ أبناءَكم يَسْتَبِيْحونَ أبناءَنا . نحن ناسٌ ، وأنتم كذلك ناسٌ ... لماذا ؟ لماذا ؟... ولكنهُ كان يَذْوِي أمامي رويدًا رويدًا .. شعرتُ السجاجيدَ مُبْتَلَّةً بالدماءِ وماءِ الوحولْ .

تلاشَى الحضورُ فصرتُ وحيدًا أكلِّمُ نَفْسِي وأَهْذي . رأيتُ المَرايا تَمُوْجُ ببعضِ الجنودْ .

وقلتُ سأصحو من النومِ قبل وصولِ الجنودْ .

- 6 -

شبابي حدائقُ ساحرةٌ وبيوتْ .

قدِ انْسَقْتُ عَبْرَ البساتينِ مُنْدَمِجًا بالمسافاتِ ، والشمسُ في الأفْقِ حافِلَةٌ بالوعودْ .

فتاةٌ تراءَتْ خلال الشجيراتِ . كنتُ أراها ولستُ أراها ، وقلبي يعانِدُ ما فيهِ من شَهَواتْ .

إذا ما تقدمْتُ غابتْ ، وإن عُدْتُ لاحتْ . بهذا تتابعتِ الأمنياتْ .

بهذا يلوحُ المَغيبُ بلاداً بها نَغَمٌ ، وسكوتْ .

فلمَّا رجِعتُ لبَيْتي رأيتُ مُسِنِّينَ مِن تَعَبٍ يَلْهثونْ .

أَرُوْني كتابًا قديمًا ، وقالوا لقد عادَ بَيْتُ أبينا إلينا ، ونحن رجالُ العهودْ .

تَوَهَّمْتُ أنيَ أقدرُ أن أتحررَ منهم فصاروا شبابًا . سَكاكينُهم مَزَّقَتْني ففجرتُ نَفْسي ، وها قد تناثرَ جِسْمِي فصارَ معانيَ باقيةً وورودْ .

- 7 -

نجومٌ قدِ ارْتَحَلتْ واسْتَقَرَّتْ هناكْ .

أنا الشوقُ يا باعثَ الليلِ ، والصوتُ
يا خالقَ الكلِماتْ.

أأنتَ هو الروحُ يَسْرِي خلال
الحضاراتِ يأخذُ نورَ العيونِ من
المبدعينَ ويجعلُ منها بلاداً تُحَرِّكُها
النغَماتْ ؟

أأنتَ الذي يُشْعلُ النَّفْسَ في
جَسَدي كلَّ ليلٍ ، ويُرْسِلُ أسرارَهُ
في منامي ، ويتركُني ظامئًا
لا أكادُ أَرَىٰ زَمَنًا يتحركُ في
الظُّلُمَاتْ ؟

تلوحُ لِعَيْنَيَّ خلفَ النجومِ ظِلالاً
ونوراً خفيًّا فَتَجْعَلُني أتوهَّمُ أني
أراكْ .

كأني أراكْ .

ولستُ أُصَدِّقُ مَن لا يحسُّ وجودَكَ
يا مُمْعِنًا في مصيري . لعلكَ مُنْشَغِلٌ
وأنا في رحيلي أموتْ .

يضيعُ الذي قد صَبَوْتُ إليهِ ... لماذا ؟
لأني مع الناسِ ضدُّ الملوكْ ؟

تُرَىٰ هل تَمَنَّيْتُ أنْ أتحررَ منكَ ؟
وهل ضاعتِ النَّفْسُ في نَشْوةِ
البحثِ عن لؤلؤٍ في ثَراكْ ؟

كأني سمعتُ الذي قال لي أنتَ
تَمْضِي خلالَ الظلامِ تُخاطبُ
وهْمًا . تُعاتِبُ من لا تراهُ وليس
يراكْ.

شعرتُ بأنَّ القبورَ تبوحُ ببعضِ
المعاني ... هو الكونُ مَحْضُ مصادفةٍ
فَظَّةٍ ، والمصائرُ ليس يُحرِّكُها غيرُ
سَعْيٍ دَءوبٍ من الشَّهَواتِ إلىٰ
الشَّهَواتْ .

وكلُّ الذخائرِ مملوءةٌ بالأكاذيبِ ... كلُّ التوارايخِ فاضَتْ بآلهةٍ ، وملائكةٍ ، وشياطينَ ليس لها من وجودْ.

رأيتُ الجماجمَ تَسْتَنْشِقُ الليلَ ... تلكَ الجماجمُ كانت رُءُوْسًا ، وها هي ماكثةٌ في الشرودْ.

تساءلتُ في خِيْفَةٍ كيف لي أن أعودْ ؟

فعـولـن

- 1 -

فَعُوْلُنْ فَعُوْلُنْ . شُجونٌ شُجونٌ. مَلاذٌ يُلاقي ملاذًا ، ونارٌ تُلاقي سهولاً . أأهذي ؟ أمِ الليلُ جاء ببعضِ التفاعيلِ فاخْتَرْتُ منها فَعُوْلُنْ؟

هو الليلُ فيه تداخلَتِ الكائناتُ . ذكورٌ قدِ اقْتَحَمَتْ ، وإناثٌ قدِ اشْتَعَلَتْ . إنها الشهواتُ ذهولُ .

تُحَرِّكُني خُطْوَتي للفتاةِ التي تَتَمَنَّىٰ
وصولي . ملامحُها في ظلالِ الشموعِ
ظلامٌ وهمسٌ ونورٌ .

إذا ما تَعَرَّتْ يَعُمُّ سكونٌ.

سكونٌ كعزفٍ خَفِيٍّ ، وثَمَّةَ – في لحظاتِ
العناقِ– رحيلٌ .

لماذا تذكَّرْتُ مَنْ في صِبايَ أرتنيَ أنّ
التَعَرِّي جنونٌ؟

جنــونٌ جنــونٌ . أنا الآنَ مُـخْـتَـبـئٌ في
مفاتـنِــهـا ، ومسامي حكـايــاتُ شَـوْقٍ
إليها . لقد جَذَبَتْني سهولٌ .

فأغْمَضْتُ عَيْنَيَّ في صدرِها فاحْتَـواني
ظلامٌ ، وجاءت نجومٌ .

وإنَّ الفضاءَ قريبٌ .

- 2 -

فَـعُـولُـنْ .... إذا دخَـلَـتْ فَاعِـلاتُـنْ عليـها فتلك مُشَاكَسَةٌ لا فَـظَـاظَـةَ فيها ، وأهلُ العَروضِ لَهُمْ في العَلاقاتِ بين الحروفِ شجونٌ .

وكـان القدامَى يَسِـيْـرونَ عَبْرَ التفاعيلِ مبتـهجـيـنَ بلا عَثَـرات ، ويعتـقـدونَ بأنَّ النـجـومَ عـطـايـا ، وأنّ النـفـوسَ خلودٌ .

لـقد ذهـبـوا والـتـفـاعـيـلُ باقـيـةٌ . كُـلُّـها قـد تـقـرَّبْـتُ مـنـهـا ، ولـكـنـنـي قـد أَطَـلْـتُ المكوثَ جِـوار فعولنْ .

- 3 -

تَحَوَّلْتُ في الحُلْمِ فَوْضَى، أقاتلُ وحدي ظلامًا .

تَحوَّلَ نَبْضيَ ماءً فماءً .

رؤًى تتزاحمُ ناسًا فناسًا .

أنا كاتِمُ السِّرِّ لا أكتُمُ السِّرَّ إلا قليلاً .

تَراءَىٰ المُسِيءُ أمامي يحاولُ أن
يتنكَّرَ أسطورةً ومَسيحًا .

أسلِّطُ نوراً من الكَلِماتِ عليهِ فَأَطْلَقَ
ناراً عَلَيَّ فصرتُ قتيلاً .

أحاربُهُ بكوابيسِ قلبي ، بنارِ المعاني
التي انْطَفَأَتْ من مئاتِ السنين فأرسلَ
نَحْوي الأفاعي فصرتُ قتيلاً .

ولمّا تأكَّدْتُ في الحُلْمِ من موتِ جِسْمِي
تبدّلْتُ حتى رأيتُ اقْتِرابَ الجزيئاتِ
من بعضِها ، وابتعادَ المجرَّاتِ عن بعضِها،
واتِّحادَ المرايا على صَفْحةِ الصَّحَراءِ
سرابًا .

وكان الفضاءُ جبالاً من الليلِ تَغْزو
جبالاً.

وما أَسْعَفَتْني فَعُوْلُنْ .

2004

ذكريات عراقي قبل هروب السفاح

- 1 -

الأجسامُ جميعًا أهدافٌ للسفاحْ.

يَقْتُلُها أو يستأجِرُها ، يرشوها أو يسجنُها . إنْ تهربْ مِنْه تدخلْ أزمانٌ مُظْلِمَةٌ في غُرْبَتِها . إنَّ الأجسامَ جِراحْ.

أسماكٌ مَيِّتَةٌ في حَوْضٍ مملوءٍ بالماءِ. يَرَاها الجاهلُ مُبْصِرَةً ، ويَرَاها الصيادُ دلائلَ مَجْدٍ . كلٌّ أولئكَ أشباحٌ في أشباحْ.

- 2 -

« أنتَ غبيٌّ » .... يَهْزَأُ بي جاري البعثيُّ الجاسوسْ.

طِيْبَةُ وجهِ الأرنبِ ، و بلادَتُهُ أمَّا الأعماقُ ففيها إبليسْ.

قد قال يؤنِّبُني : « لكَ جِسْمُ الماردِ . كنتَ جديرًا أنْ تصبحَ في كَوْكَبةِ الحراسْ ».

سوف أُنَكِّسُ رأسي حتى تَمْضِي عني يا جاسوسْ.

فأصيرَ وحيداً أسْتَعْجِلُ أن يأتيني الليلُ فأحلُم أني حُرٌّ . أقرأُ عن حالاتِ الأفلاكِ ، وأنزلُ بعدئذٍ للغاباتِ فأحسِدُ فِيْلاً يأكلُ أعشاباً ، ويخوضُ خلال الماءِ سعيداً . لا يأبهُ لصراعٍ دمويٍّ بين الأجناسْ.

- 3 -

كيف أحَبَّتْني ، وهْي ورودٌ وفراشاتٌ؟
كيف نعومَتُها وصَلَتْ عندي واقْتَحَمَتْ
عَتَباتي؟!

أتذَكَّرُ يومَ اخْتَلَسَتْ وقتًا صيفيًّا
فتقابَلْنا عند النهرِ ، وكنتُ أحسُّ
بها تَدْخُلُ في ظُلُماتي .

جِسْمي يَكْسُوهُ شَعْرٌ وَحْشِيٌّ .
ضخماً أمشي في الدنيا ، أبدو
منعزلاً وكتوماً و هْي أرادتْني !
هل حقًّا تَسْتَعْذِبُ أن تَمْكُثَ في
غاباتي؟!

كيف أدوِّنُ ما كنا نتبادلُهُ من
أنوارٍ ؟ كيف أدوِّنُ رغبةَ عينيها
في أنْ تصبحَ أُمًّا ؟ ولماذا أخشَى
وهْي بقُرْبِي أن تحدثَ أهوالٌ في
الزمنِ الآتي؟

- 4 -

السفاحُ بكل مكانٍ . حتىٰ في يومِ زفافي كنتُ أَرىٰ صورتَهُ . في كل مكانٍ صورتُهُ . إنْ جاءتْني حُمَّىٰ يتسللْ في هذياني.

مبتسمًا يرفعُ كَفًّا للأوغادِ المأجورينَ وللبُلَهاءِ المفتونينَ . جموعٌ تَتَقَرَّبُ مِنْهُ مُتَباعِدَةً عن دنيا الإنسانِ .

مَنْ منهمْ سوف يموتُ – مع الأيامِ – من التعذيبِ أو الحربِ ؟ ومَنْ منهمْ سَيَئُولُ إلىٰ حالٍ يصبحُ فيهِ مِثْلي منعزلاً في الصمتِ و في الأحزانِ ؟

- 5 -

كابوسٌ داهَمَ قلبي ذات مساءْ.

أنّ الشعراءَ يعيشونَ ببئرٍ ليس بها من ماءْ.

يأتي ناسٌ في أُبَّهةِ الحراسِ فَيُلْقونَ بحَبْلٍ يصطادونَ به أحدَ الشعرَاءْ .

يَخْرُجُ للنورِ فَيَهْذِي بمَديحٍ للسفاحِ ، وبعدئذٍ يرجعُ للبئرِ ثقيلاً ممتلئًا بالماءْ .

- 6 -

بَـيْـتِـي مأوىٰ أَرَقي ، وشواطئِ أوهامي،
وليالي عُرْسِي ، وكتاباتٍ أُخفيها.

وأنا مجهولٌ أشعرُ بغدادَ عجوزًا
تَتَوَكَّأُ من فرطِ القهرِ عَلَىٰ
ماضيها.

قد جاء إليها الطغيانُ الأكبرُ مُحْتَمِيًا
بصواعقِهِ ، وضغائنِهِ ، ورؤاهُ المجنونةِ
يتحداها .

كان الليل مُضَاءً .... مُنْطَفِئًا
و مُضَاءً ، والحربُ علىٰ بعد ليالٍ .
إنّ بلادي – قاطبةً – تَدْخُلُ في
مَنْفاها.

- 7 -

حُلْمٌ مجنونٌ يتكونُ عَبْرَ ليالٍ
في وِجداني .

كنتُ أَرَىٰ السفاحَ بقَصْرٍ ذي جدرانٍ
حمراءَ ، ولا أشعرُ أني سأموتُ إذا
أحدُ الحراسِ رآني .

يَجْلسُ مُفْتَرِشًا صُحُفًا تَحْمِلُ
صورتَهُ ، تحملُ أكوامًا من أمجادٍ .
ما أسعدَهُ بصنوفِ البُهتانِ .

نشوتُهُ تَخْرُجُ مِنْهُ حتى صارت دخّانًا يتحركُ نحو الأركانِ .

ثم انْطَلَقَتْ قهقهةٌ فَتَكَسَّرَتِ الأكوابُ جميعًا ، و تلاشت جدرانٌ ، و بهذا صار يسيرًا أن أتسللَ نحو الوديانِ .

فإذا بالسفاحِ يسيرُ أمامي ذئبًا يَتَتَبَّعُ رائحةَ الغائطِ في الغِيْطانِ .

-8 -

بيتي مملوءٌ بوجودي في صُحْبَتِها وهْي وجودٌ يبدو لضميري مِسْكًا مَرْئيًّا أو طيفًا سِحْريًّا ، أو أنوارًا مُتَكَوِّنَةً يَسْتَغْرِبُ جِسْمي لُقياها.

صرنا - أيامَ الحرب - ذبولاً . تتوحَّدُ في صمتٍ أحوالُ دمائي ودماها .

لَمّا أسرفْنا في الخوفِ تعانقْنا حتى أسرفْنا وتناغَمْنا ... كانت تَتَشَبَّثُ بي ، وأنا أتوهَّمُ أني أحميها .

ظـــلام المَـــرْسَـــم

انتهت في مارس 2006

- 1 -

خَمائِلُ ماكِثَةٌ في الضبابْ .

وخَلْفِي سنينُ حياتي قناديلُ مُطْفَأَةٌ ، ونخيلٌ يحاولُ ألا يموتَ خلال الخلاءْ .

وقَبْلَ وصولي إلى سَنَوَاتِ الظلالِ أَتَتْنِي فتاةٌ، وزَجَّتْ بأشواقِها في ضميري ، ونامَتْ معي و الليالي شتاءْ.

مشاعرُ وحشيةٌ جِسمُها ، وزهورٌ تُبَدِّدُ عني هزائمَ نفسي فصرتُ كأنيَ ما عِشْتُ مُنْعَزِلاً في الظلامْ .

تبوحُ بأسرارِها كُلَّما اتَّكَأَتْ فوقَ صدريَ عاريةً . كلُّ سِرٍّ غُروبٌ ، و نارُ الفؤادِ قليلٌ من النورِ ، و الغَفَوَاتُ ليالٍ ، وكلُّ رحيلٍ عذابْ.

هِيَ المَاءُ بَلَّلَنِي وأنا أتقدَّمُ نحو السرابْ.

أنامِلُها تَتَسَرَّبُ في جَسَدي فَغَفَوْتُ فصارت تراقِبُني وأنا أتسامَى إلى النومِ ... في النومِ دَثّرَني الليلُ فاخْتَلَطَتْ ظُلُماتي ببعضِ الضياءْ.

وراحَ شِهابٌ يسارعُ نحو شِهابْ .

فسافَرْتُ في دَرَجاتِ المَجَرَّةِ حتى رأيتُ المعاني قد انْتَشَرَتْ في الفضاءْ.

رأيتُ وجوهاً ، رأيتُ نجوماً ، ولَمّا دخلتُ ظلاماً تسافرُ فيه الرؤَى قال لي قائلٌ " إنْ رجَعَتَ إلى الأرضِ بِعْ ما لديكَ ، وعُدْ للسماءْ "

صحوتُ عَلَى صوتِها وهْيَ تشكو بأني كَسولٌ وَجَدْتُ الأشِعَّةَ من حولِها انْطَفَأَتْ ، و العطورَ قدِ ارْتَحَلَتْ ، وهْيَ مخمورةٌ تَتَعَثَّرُ في الكلِماتْ.

قد اتَّهَمَتْنِي بأنيَ أحيا مع الجِنِّ " أنتَ تُسَخِّرُهُمْ بَلْ لَعَلَّكَ مِنْهُمْ .... لأجلِكَ أَجَّلَ قلبي كثيراً من الأمْنياتْ ."

أَخَذْتُ أشارِكُها في حرائِقِها ، وأُصَدِّقُ أوهامَها فأَفاقَتْ قليلاً ، وراحَتْ بغيرِ وداعٍ ، وغابَتْ خلالَ المساءْ .

- 2 -

تَضَاءَلْتُ في مَرْسَمِي . إنَّهُ يَتَحَمَّلُ فَوْضَى وجودِ رُسُومي مُبَعْثَرَةً في الزوايا بألوانِها ومصائرِها . يَتَحَمَّلُ صَمْتي ، كوابيسَ نَفْسِي ، خُموري ، وخوفي من الذكرياتْ .

أنا الآنَ أرسُمُ وَجْهَ فتاةٍ ... أقَلِّلُ فِتْنَتَها فاحْتَمَتْ بالنجومِ القريبةِ منها ، وصارالظلامُ الذي حَوْلَها يَكْتَسِي باحْمِرارِ الورودْ .

فلمَّا انْتَقَلْتُ إلى لَوْحةٍ أغْلَقَتْ كلَّ أبوابِها واضْمَحَلَّتْ لَجَأْتُ إلى النومِ مُسْتَنْجِدًا بالروَىٰ والشُّرودْ .

تَرَاءَتْ مياهُ ينابيعَ تُسْرِعُ في سَيْرِها ، وتَرَاءَتْ صخورٌ بها شُبْهَةٌ من وجوهٍ تحسُّ الذي حَوْلَها من وجودْ .

مَساراتُ لونٍ تُباغِتُني غير أني صَحَوْتُ عَلَىٰ مَنْ يُلامِسُ شَعْرِي . هي الآنَ عادتْ بعينينِ مِلْؤُهما المَكْرُ والشَّهَواتْ .

أَتَتْنِيَ مُسْرِفَةً في تَمَنُّعِها .
خَلَعَتْ دونما خَجَلٍ ثَوْبَها ، واكْتَفَتْ
بالقليلِ الذي قد تَبَقَّى . قدِ ابْتَعَدَتْ
نحو إحْدَى الزوايا ، وظَلّتْ خلال
السكونْ .

وفي كَسَلٍ أسْنَدَتْ رأسَها للجدارِ
فَصِرْتُ أراها قدِ اكْتَمَلَتْ لَوْحَةً ...
سوف تَبْقَى هناكَ دقائقَ ثم
تَزُولْ .

كأني تشاغلتُ عنها فراحتْ تُعَذِّبُني ...
تَتَمشَّى أماميَ عاريةً ، وجنوني شموعٌ
تُراقِبُها . آهِ قد أدركَتْ لَهْفَتِي ،
واشْتِياقي فصارت تُماطِلني ، وتَؤخِّرُ
عني الْتِقاءَ العيونْ .

فقلتُ لقلبي تَمَاسَكْ ولا تَتَعَجَّلْ ، وخُضْ معها في تباعدِها أو تَقَرُّبِها ثم أَسْرِعْ إليها إذا ما شَعَرْتَ الثواني التي تَسْبِقُ اللمَسَاتْ.

وها قد أتاني تَشَبُّثُها فصَعِدْنا معًا لفضاءٍ قريبٍ فصرنا ملائكةً وشياطينَ وقْتَ اللقاءْ .

بَدَأْنَا ثلاثَ ليالٍ من النارِ حَتّى انْطَفَأنا ، وحَلَّ الأسَى . قال لي ظِلُّهَا إنها سوفَ تمضي وتَتْرُكُني لغيومِ المساءْ .

- 3 -

تَذَكَّرْتُ أمِّي الجَميلهْ .

تَذَكَّرْتُها و هْيَ في ثورةٍ و بكاءٍ . أكانت تُهَدِّدُني أمْ تُراها قد اسْتَعْطَفَتْنِيَ بالنظَراتِ الحزينهْ ؟

تقولُ " أبوكَ اخْتَفَى من حياتي ، وإنيَ يائسةٌ وجَماليَ في السَّنَواتِ الأخيرهْ .

تَزَوَّجْتُ فاهْرُبْ من البيتِ إنْ شِئْتَ أو فَابْقَ مُحْتَمِلاً صامتًا عن زياراتِ زَوْجي القليلهْ ."

جحيمًا من الخِزْيِ كانت مراهَقتي . قد كرِهْتُ سجائرَهُ ، واسْوِدادًا بِجَبْهَتِهِ ، وادِّعاءَ الفَضيلهْ .

لقد كان يَرنو لخادمةِ البيتِ في لهفةٍ ثمَّ يُمْسِكُ مُسْتَغْفِرًا ، ويعودُ إلىٰ نَفْسِهِ ... نَفْسُهُ ليس فيها كتابٌ ولا لوحةٌ و بهذا تَرَاءَىٰ أمامي حِمارًا لَهُ نَظَرَاتٌ وَديعهْ .

ولولا الحِمارُ لمِتُّ من الجوعِ أو ضِعْتُ في طُرُقاتِ الجريمهْ .

- 4 -

صديقي يُناقِضُني ويُكمِّلُني...
يَتَغَزَّلُ في الحَرِّ مُدَّعِيًا أنَّهُ جَنَّةُ الكائناتْ .

" أليسَ ابْتِعادُ النفوسِ عن الشمسِ يجعلُها في انْكِسارٍ ؟ أليس الشتاءُ حليفَ الغَمامْ ؟

هو البَرْدُ ألوانُهُ دَرَجاتُ الرمادْ ."

صديقي يهاجرُ في كلِّ صَيفٍ إلى واحَةٍ تَسْكُنُ الصَّحَراءْ .

إذا زُرْتُـهُ نـتـلاشَـى خـلال حـقـولٍ بـهـا شَـجَـرٌ سـاكـنٌ . إنـنـا الآن فـي كَـسَـلِ الصيفِ نَمْضي خلال انْـبِـعاثِ الظَّـهيرةِ ، والـصـمـتُ مِـنْ حـولـنـا تَـتَـخَـفَّـى بِـهِ الرَّغَـباتْ .

هنا في احْـتِـدامِ وجودِ النباتاتِ أكـشِـفُ بـعـضَ العلاقاتِ بـيـن الظلالْ .

ولا...لا أُجـارِي جـنـونَ صـديـقـي إذا مـا أرادَ الذَّهابَ إلى عَـبَثِ الخَـوْضِ عَبْرَ الرمالْ .

وقلتُ لعلَّ الحرارةَ إنْ دَخَلَتْ جَسَدي أخْرَجَتْ ما بِهِ من سهادٍ و شوقٍ ، وظَلّتْ بِنَفْسي بَديلاً من الجَمَراتْ.

فأنَّبَني ضاحكًا " أنتَ أسْرَفْتَ في عِشْقِ تلك الفتاةِ ، ولستُ أراكَ تحاولُ أن تَهتدي ، وتعودَ لدُنيا التَّقَلُّبِ بين النساءْ."

- 5 -

أَبِـي كيـف أَرْسُـمُـهُ والمحبَّـةُ مُسْرِفَـةٌ لا تُريني ملامِحَهُ ، والدموعُ التي بيننا – كالنَّدَىٰ في النوافذِ – تَجْعَلُني لا أكادُ أراهْ .

أُبُـوَّتُـهُ رَحَـلاتٌ خـلالَ البسـاتيـنِ ... نَمْضي معًا ... كنتُ أمـزُجُ بيـن الـورودِ وبين الوجوهْ.

ولمَّا وَصَلْنا لآخرِ حقلِ زهورٍ رَجَعْتُ صَبيًّا وحيدًا ، ولَمْ أستطعْ مَنْعَهُ أنْ يغادرَ هذي الحياهْ.

- 6 -

أَلَحَّتْ ونَفْسِي اسْتَجابَتْ فصِرْنا معًا رِحْلَةً في سفينهْ .

لها نَظَرَاتٌ مُلَوَّنَةٌ ، والنهارُ حياةٌ مُلَوَّنَةٌ ، والدقائقُ مُمْعِنَةٌ في البراءهْ .

تَأَلَّقَتِ الروحُ فيها لِمْرأَى المياهِ فراحَتْ تغوصُ إلى مَلَكُوتٍ من الكائناتِ . لَهَا جُرْأَةُ السَّمَكِ المتوحشِ ، والبحْرُ في نومِهِ لا يقاومُها إن سَعَتْ نحو أعماقِهِ المستحيلهْ.

وما كان يُمْكِنُني أن أجاري
تَدَفُّقَها .. ضَحِكَتْ من سذاجةِ
جسمي الذي يَتَخَبَّطُ في الماءِ
دونَ سباحهْ .

بلا رأفَةٍ شَبَّهَتْني بقاربِ صيدٍ
وقد رَبَطوهُ بحَبْلٍ فلا أستطيعُ
سِوَى الطَّفْوِ مُدَّعِيًا أنني لا أخافُ
من الكائناتِ المخيفهْ .

أراها قدِ انْدَمَجَتْ بالمياهِ ، وبالشمسِ
فانْسَابَ سِحْرٌ يلوِّنُ بَشْرَتَها . قد
تَمَنَّيْتُ ألاّ نعودَ لنارِ المدينهْ .

وفي الليلِ كلُّ الشواطئِ حافِلَةٌ بالمباهجِ ...أحسستُها تَطْمئِنُّ عَلَىٰ كَتِفِي . هي مِنِّي . أليسَتْ من الضوءِ والطينِ والزَهْرِ مِثلي؟ أَخَذْنا نراقبُ ليلاً يزاحِمُهُ البحرُ....كيف سأرسُمُها وهْيَ هائِمَةٌ في الليالي؟ وكيف سأجعَلُها تَتَخَفَّىٰ بأشجارِ هذي المياهِ العميقهْ؟

حياةٌ مسالِمَةٌ تتكوَّنُ حَوْلِي ، وما عادَ يُرْبِكُني غَيْرُ هذي الأنوثهْ.

تَشَجَّعْتُ بالنَّشَوَاتِ التي في الظلامِ فقلتُ لها " إنّ غَيْرَةَ نَفْسِي تقاتِلُني، والظنونَ طيوفٌ تطاردني. إنّ قِصَّتَنا أخْرَجَتْ من حياتي السَّكِيْنَهْ.

فقالت " لَعَلَّكَ تَسْعَدُ لو أننا في زمانٍ قديمٍ بِهِ قد رَضِيْتُ بذُلِّ الجواري ، وأنتَ زعيمُ القبيلهْ ."

تبدَّتْ أمامِيَ هادئةً ثم قالت"فؤاديَ حُرٌّ ، وأهليَ لا يعرفونَ التَّزَمُّتَ . قد صار أمثالُنا هدفًا للضَّغِيْنَهْ .

لَعَلَّكَ قلتَ لنَفْسِكَ لا شيءَ يَمْنَعُها أن تجَرِّبَ أكبرَ قَدْرٍ من الجِنْسِ عَبْرَ التَّنَقُّلِ بين رجالٍ كثيرينَ ... علَّ شكوكًا أَتَتْكَ بأنيَ أكسِبُ حينَ أكونُ رخيصهْ .

أتَعْلَمُ أنّ الذين يخونون أَنْفُسَهُمْ قد يظنونَ - مِثْلَكَ - أن الخيانةَ هَيِّنَةٌ ، والنفوسَ جميعًا خبيثهْ .

لَـكُـمْ عُـذْرُكُـم فالحـيـاةُ تـقـاتِـلُ مَـنْ لا يُجاري أعاصيرَها . إنني لا أُجاري أعاصيـرَها ... لـستُ مِـثْـلَـكَ ضالِـعَـةً في الخيانـهْ ."

فقلتُ " لعلَّكِ لا تدركينَ الحقيقهْ ...."

فَمَا اسْتَمَعَتْ و اسْتَمَرَّتْ " لماذا انْضَمَمْتَ بـغـيـرِ حـيـاءٍ لـدائـرةِ الـسـوءِ تَـرْشـو زبانِيَـةَ الـنقـدِ والمِـهـرجانـاتِ ؟ كـيـف تـحـمَّـلْـتَ أن تَـتَـدَنَّـى إليـهـم ؟ وكـيـف تغاضيتَ عمّا بهم من لُزُوْجَهْ؟

رَسَـمْـتَ بغـيـرِ شعـورٍ زخـارفَ دينـيـةً
يـشـتـريـهـا العُـتـاةُ من الأثـريـاءِ
يريـدونَ منها الكثـيـرَ من البَـرَكاتِ ،
وبعضَ الحمايـهْ .

نفاقٌ أتاكَ بمالٍ حرامٍ ... ألستَ بهذا
تخـونُ الذي في فـؤادِكَ من فِـطْـنـةٍ
وطفولـهْ ؟"

نَعَمْ كِدْتُ أنْـهَـرُها غير أني كَـظَمْتُ اضْـطِـرابـي ، وسِـرْتُ وحـيـداً أصـارعُ نَفْسي ... إذَنْ هي تَـعْلَـمُ تلك الخَفَايا ... تَـعَـجَّـبْتُ كيـف رَأَتْ ما يـدورُ بـتـلكَ الجحورِ العميقـهْ .

أَخَذْتُ أُصالِحُ بين الرؤَىٰ في ضَميري ، وبيـن اضْطِراري إلىٰ أن أخـوضَ قلـيلاً خلال الرَّذيلـهْ .

وجاء الصباحُ فَعُدْنا لنارِ المدينـهْ .

- 7 -

بِلا رحمةٍ قد جَفَتْني فجافَيْتُها
فامْتَلَكْتُ الكثيرَ من اللحَظاتْ.

إذا ما اسْتَعَنْتُ عَلَى اللَيلِ بالخَمْرِ
تأكلُني الخَمْرُ حتى تُحَوِّلَني شَبَحًا
فأَرَى مَرْسَمِي زَمَنًا يَجْلِبُ الويلَ
واللعَناتْ .

وجاء صديقي يراني فأنْقَذَني ... قد
رَحَلْنا لِجَنَّتِهِ ، وهناكَ طَلَبْتُ النجاةَ
فَسِرْتُ خِلالَ الجحيمِ الذي تتلاشَى
به الصَّحَراءْ.

هو الكَيُّ بالنارِ مارَسَهُ القدماءْ.

جنونٌ من السَّعْيِ نحو عَرَاءٍ وراءَ عَرَاءٍ أمامَ عَرَاءْ.

حَكَيْتُ لَهُ عن أكاذيبِها ، والوعودِ التي أخْلَفَتْها فحاكمتُها بضميرِ القبائلِ . كان الفضاءُ اصْفِراراً كئيباً يسافرُ نحو التلالْ .

إذا مارَأَتْ بعضَ مالي حراماً لماذا إِذَنْ قَبِلَتْ أن تَخُوضَ معي في نعيمِ الحرامْ ؟!

وقلتُ لَهُ إنها كالمرايا قدِ اسْتَوْعَبَتْني جميعًا فكيف سأطردُ عنها الذينَ يريدونَ أن يَدْخُلوا في حِماها ؟! وكيف أُخَلِّصُ نَفْسِي من الخَفَقانْ ؟!

سمعتُ لُهاثي ، وأصواتَ صَمْتِ الصحارِي ، وأحسستُ أنّ جميعَ الأماكنِ تَصْلُحُ قَبْرًا ، ولَوْلا وجودُ صديقي لَمَا رجَعَتْ خُطْوَتي عن بلوغِ الفناء.

وقال" علينا الرجوعُ " لقد كان يُدْركُ أني قدِ انْسَقْتُ للهَذيانْ.

- 8 -

مُكَالَمَةٌ قد أتتنيَ في الفَجْرِ منها . أَنَرْتُ المصابيحَ في لَهْفَةٍ فرأيتُ الخفافيشَ في لَوْحَةٍ لن أُكَمِّلَهَا . صرتُ أسمعُها ، وأعاني الإفاقهْ .

قد ابْتَدَأَتْ بكلامٍ طريفٍ تَحَلَّى ببعضِ البذاءهْ.

ومِنْ بَعْدِهِ بَدَأَتْ رحلةَ الكلماتِ الرهيبهْ.

"لَعَلِّيَ نادِمةٌ إذ مَنَحْتُكَ أسرارَ نَفْسِي وأنتَ كَتُومٌ ... أتحتاجُ أَنْ تَسْتَعيرَ الذي في ضميريَ من طِيْبَةٍ وجَسارهْ ؟! "

وقالت " قرأتَ كثيرًا كثيرًا ، ولمَّا عَشِقْتَ تَحَوَّلتَ دِيْكًا غَيورًا كأنَّكَ كنتَ تَعُبُّ الغباءَ بتلك القراءهْ."

وقالت " أحاولُ أنْ أتَخَلَّصَ مِنْكَ بأنْ أتَذكَّرُ ما فيكَ مِنْ رِيْبَةٍ وبَداوهْ ."

صَمَتُّ كأنيَ لا أَتَأَذَّىٰ بما أَرْسَلَتْهُ لسَمْعي من السُّخْرياتِ المَريرهْ .

لقد سَهِرَتْ لَيْلَها تَتَوَعَّدُني ثم في الفَجْرِ صارت تحاكمُني . كنتُ بالصمتِ أُبْلِغُها أنني أستَحِقُّ الإدانهْ .

وجاء الصباحُ ففجَّرَ حوليَ قُبْحَ المدينهْ .

- 9 -

أتـتنـيَ شاحِبـةً ، والأكاذيبُ مِنْ حَـوْلِـها قِطَـطٌ تَـتَـمَـسَّحُ في بعضِها ، والنـهارُ غَمامْ .

خواتِمُ زائفةٌ وعطورٌ ، وسِحْرٌ يراوغُني، والنهارُ يُبَدِّدُ عني الهُيامْ .

وقلتُ لنفسيَ إن عيـونَ النمورِ إذا الْتَمَعَتْ فَهْي مُشْتاقةٌ للدماءْ .

" لسوفَ أسافرُ ... أحتاجُ مالاً " فأَعْطَيْتُها ما أرادتْ فقالَتْ " وداعًا " وراحت إلى الغُرَباءْ.

فَعُدْتُ إلى عُزْلَتي . قد رأيتُ المسافاتِ دَفْقَةَ لَوْنٍ تشاركني غُرْبَتي ، والطيورَ التي هاجَرَتْ أُسِرَتْ في الرحيلِ خلال الفضاءْ.

تَوَغَّلْتُ مُسْتَوْحِشًا في الليالي فصرتُ كأنيَ ما كنتُ أعْرِفُها غير أنّ مُكَالَمَةً قد أَتَتْنِيَ منها... لقد كَلَّمَتْنِيَ ضاحكةً " قد تَزَوَّجْتُ ... لَمْ يَتَشَكَّكْ بعُذْرِيَّتِي ، والحياةُ غرائبُ ثَلْجِيَّةٌ في بلادِ الشَّمالْ."

تَذَكَّرْتُها يَوْمَ قالت " تعالَ لِبَيْتي . لقد سافرَ الأهلُ والآنَ أمكثُ وَحْدِي." فكيف أُسايرُ جُرْأَتَها؟ آهِ كيف أبوحُ لها أنني لم أَعُدْ أنتمي لرعونةِ ذاك الشبابْ؟

مئاتُ العصافيرِ كانت تهيمُ بروحي
وماتت ، وما عاد عنديَ غَيْرُ قليلٍ
من الرَّفْرَفاتْ .

دَخَلْتُ كهوفًا بَنَتْها ليَ الخَمْرُ
فاخْتَلَطَتْ ذكرياتي ، وما عاد يُمْكِنُني
أن أَرَىٰ غَيْرَ ليلٍ به زُرْقَةٌ
واسْوِدادْ.

إذا ما أَفَقْتُ تَأَمَّلْتُ وجهي لأرسِمَهُ
وهْوَ في السُّكْرِ منتميًا لاحْمِرارِ
السحابْ .

تناسيتُها غير أن مكالمةً قد أتتنيَ منها ... لقد كَلَّمَتْنيَ باكيةً " أنتَ أنتَ حبيبي " وبَعْدَ قليلٍ من الصمتِ ما عُدْتُ أسمعُ غيرَ البكاءْ .

كلانا يعاني وجوداً مخيفاً خلال الضبابْ .

ووحديَ كَـذَّبْـتُـها وهْـيَ عـاشـقـةٌ ثـم كَـذَّبْـتُـها وهْيَ صـادقـةٌ . آهِ لاحَـقْـتُـها بظـنـوني فصـارت ظنـوني تقـاتِـلُني فإذا ما غَفَوْتُ أهالَتْ عَـلَيَّ التـرابْ .

تمادَيْتُ في رَسْمِها عَلَّني أستعيدُ ولو لحظاتٍ لقاءً قديمًا فألمَسُها .. ثم لَمَّا تـوهَّـمْـتُ أنـي أراهـا بكـيـتُ اعْـتِـذارًا ، وحاصرْتُها بالورودِ ، وأبعدْتُها عن كثيرٍ من العبَرَاتْ .

ظَـلـلـتُ مُـفِـيْـقًـا إلىٰ أن شعـرتُ الفراقَ عَـدُوًّا كـأن الـفـراقَ عـبـورُ الأحبـةِ نـحـو المماتْ .

ليالٍ مُحَمَّلَةٌ بشياطينَ ماجنةٍ قد سَرَتْ في المنامْ.

فسارَعْتُ خَطْوِي إلىٰ رَجُلٍ عابرٍ لا أراهُ سوَىٰ في المنامْ.

لَـجَـأْتُ إليهِ فطمأنَنَني ثم خَـفَّـفَ عني فأعطَيْـتُـهُ لَـوْحَةً حَـمَـلَـتْ سِـرَّ قلـبي فَحَوَّلَها لنِقاطٍ ، وأَلْـقَى بها في البـراري بذورًا، وأطـلـقَـها في الـفضـاءِ طـيـورًا ، وأرسـلَ بعـضَ المعـاني ضيـاءً خـلال الظلامْ.

بهذا انْـتَـهَـيْـتُ حيـاةً ، وصـرتُ وجـودًا تكاثرَ منـتشرًا في المكانْ.

المحتـــــوى

التوءمان	3
البدايات	9
المتصوفون الشعراء بعد مرورهم بمتاهات التجارة، وأبواب الأشرار	13
اللوحات	21
حُلم	27
الكوابيس	31
فعولن	51
ذكريات عراقي قبل هروب السفاح	59
ظلام المَرْسَم	71

أعمال الشاعر عادل عزت

	تاريخ الطبعة الأولى
١- المتصوفون الشعراء في الزمن العصيب	1983
٢- اختباء النور	1988
٣- العرب القدماء	1990
٤- هواجس الشاعر المقتول	1990
٥- السبعة	2000
٦- ظلام المرسم	2006
٧- البيت المسكون	2009

دواوين الشاعر عادل عزت على الموقع

www.adelezzat.com

السلام للطباعة
ت : 22989714 - 22960665 -22978425
فاكس : 22989251